التصوف في شعر محمد راضي جعفر

د. مؤيد عباس حسين العيثاوي

جامعة بغداد

المقدمة :

تطمح هذه الدراسة الى تلمس مكامن الابداع الشعري من خلال النصوص الصوفية وما تحتويه من روى وافكار وتجليات وشطحات نضمت عن المواهبة الكبيره للشاعر الدكتور محمد راضي جعفر . وسوف يكون الاطار العام لهذه الدراسة مجمل النتاج الشعري لهذا الشاعر الكبير ، اما الارضية الخاصة التي سوف نتاولها بالمعالجة والتحليل فهو ديوان (تحولات الروح) لانه يمثل خلاصة التجربة الصوفية التي بدات تبلور بشكل واضح وحقيقي في المراحل من حياة الشاعر وقد طبع هذا الديوان مرتين .وسوف نقارن لاحقا بين هاتين الطبقتين من اجل استكمال الفائدة .

وربما كان من نافلة القول ان الدكتور محمد راضي جعفر قد تعرض الى دراسات عديدة ،منها ما كتبه الباحث تعرض فيه لاحد دواوينه السابقة [١]. ومنها ما اشمل على جميع شعره [٢]. ولم يقف عند حدود ديوان معين.

تقسم هذه الدراسة بين فصلين الاول منهما اطار نظري لمعنى التصوف وتاريخه واركانه وخصوصية اللغة في شعر المتصوفه .والاخر تطبيق عملي لنصوص من شعر الشاعر بصورة عامة ومن نصوص ديوان (تحولات الروح) بوجه خاص ،وسوف يمهد الباحث لهذه الدراسة بشذرات عن حياة الشاعر ومصادر ثقافته الشعرية .

اما فيما يتعلق بمنهج الدراسة فسوف يختار الباحث المنهج التكاملي الذي يتعامل مع النص في كل مرحلة من مراحله وكل جزئية من جزئياته بما تستحقه وتستوعبه من منهجية علمية ، ومعنى هذا ان الباحث سوف يكون بنيوياً حينما تقتضي الضرورة ،اسلوبياً في اماكن اخرى ،وقل مثل ذلك على جميع المناهج النقدية الاخرى من اجتماعية ونفسية وتاريخية وتحليله .

وختاماً فان سبب اختيار هذا الموضوع يرجع بالدرجة الاولى الى تصور الباحث بان هذا الجانب من شعره مازال بحاجة ماسة الى المزيد من التمعن والاهتمام ،لكي نعيد لهذا الانسان المبدع والشاعر الكبير بعضاً من الفضل الذي اسداه للثقافة العربية وعشاقها ،والله من وراء القصد.

التمهيد :

لقد جرت العادة عند الحديث عن شاعر ما ،ان نبدأ منذ البداية وغالباً ما تكون البداية هي لحظة الولادة ،ولكن الولادة ربما لا تكون متطابقة من حيث الزمن بين الانسان والشاعر ،فربما يولد الانسان في لحظة زمنية بعينها ثم تبدأ الحالة التراكمية للمعرفة والثقافة بعد تفاعلها مع الموهبة الموجودة اصلاً لتكون لحظة متطاولة زمنياً يخلق فيها الشاعر .وفي هذا التمهيد سوف نتجاوز ما جرت عليه العادة .لاسباب منها ان محمد راضي جعفر تحدث مراراً وتكرراً [٣] عن طفولته وصباه ومصادر ثقافته الشعرية ،هذا من جانب ومن جانب اخر فقد كتبت عن شعره دراسة اكاديمية تناولت في الفصل الاول منها كل ما يتعلق بحياة الشاعر وثقافته [٤]، اقول سوف نتجاوز كل ذلك ونتكفي بشذرات صغيرة تفيدنا في فهم التجربة الصوفية لهذا الشاعر الكبير .

لقد ولد الشاعر في البصرة مطلع الاربعينات من القرن الماضي ،ونشأ في

اسرة عريقة وذات موقف وطنية مشهودة [٥] عشق الموسيقى والطبيعة وبدات ثقافته تشكل من خلال عشق القراءة ودقة الملاحظة وقوة التامل وجاء الانتماء السياسي في العام ١٩٥٨ ليخلق منه مناضلاً مبدئياً يحمل هموم الامة وتطلعاتها ، وبدا ينشر القصائد القومية والوطنية في الصحف والمجلات العراقية والعربية ، وقد افاد كثيراً من دراسته للغة العربية ،في المرحلة الجامعية ،وفي رسالتيه للماجستير [٦] والدكتوراه [٧].

يقول الباحث لؤي شهاب : ((واخيرا فان محمد راضي جعفر شاعر مؤصلمنذ العام ١٩٦٠ ،فقد ذكره دليل الجمورية العراقية)) [٨] ويقول عنه ايضا : ((فهومن جيل الستينات الذين لم يتوقفوا عن العطاء الشعري بخاصة والادبي بعامه حتى الوقت الراهن)) [٩].

في معنى التصوف :

يعد التصوف نزعة طبيعة في كل الناس ؛لكونه استجابه لحنين الروح الى مصدرها الاول ،ذلك الحنين الذي يضعف من سيطرة الجسد المادية على الروح ويتم ذلك بانواع الرياضيات والمجاهدات [١٠] ،وبذلك يكون الصوفي الحق هو (عالم عمل بعمله ٢. أي على وجه الاخلاص لاغير فليس علم التتصوف الا معرفة طريق الوصول الى العمل بالاخلاص فقط . وعندما يعمل العالم بعلمه على وجه الاخلاص يكون هو الصوفي حقا .(١١)

التصوف بين الدين والفسلفة :

هناك نوع من التصوف ينشا في احضان الدين ،واخر لا علاقة له بالدين وهو التصوف المطلق ،حيث يكون النزوع فيه الى الاتصال بالعلة الاولى عن طريق فرض الوان من المشقة على الجسم والنفس معاً ،والفرق بين النوعين هو دوران التصوف الديني في فلك الدين ،لانه يستهدف الوصول الى روح الدين وجوهره ،محاولاً في الوقت نفسه ان يؤائم بين ما يصل اليه من افكار وبين

التعاليم الدينية التي يخضع لسلطانها ،والتصوف الديني ينشأ دائماً عن العبادة القائمة على الزهد في الدنيا والرغبة عن نعيمها ،ايثاراً لنعيم الاخرة ،او ايثاراً للتمتع بالمعاني الروحية السامية التي تنشأ عن المرتاضين من العباد ،في حين ان التصوف المطلق ينشأ حراً خارج دائرة دين من الاديان ومن امثلة الانظمة الستة في الفلسفة الهندية والتي منها (اليوجا)[١٢].

وبناءاً على ما تقدم فان الزهد الذي ينشا عنه التصوف يعني الانصراف عن لذائذ الحياة ومعها وعدم الركون اليها ،اما التصوف فهو مذهب معروف عند اصحابه يتجاوز الزهد الى صفات وحقائق يعرفها عند اصحابه المتكلمين على لسان التغريد، وحقائق التوحيد واستعمال طرق التجريد ،وهكذا انطلقت موضوعات الزهد الى ابعاد صوفية في الشكل والمضمون ،وتتحول الى مبادئ او نظريات وممارسات اخلاقية واجتاعية كونت اتجاهاًجديداً ورث من حركة الزهد ، اولياته الفكرية والروحية والادبية، واضافة اليها الكثير الذي جعل الزهد والتصوف في اتجاهين مختلفين بينهما فروق كثيرة لاتزيلها او تخفف من وطئتها الاصول المشتركة ، فقد اختص التصوف عن الزهد بظهور نزعة المحبة الالهية . ومن الزهاد والاوائل في هذه المرحلة ابراهيم بن ادهم ، وبشر الحافي ، ومعرفة الكرخي وغيرهم [١٤] ، ويرجو السبب فيما سبق ذكره من علاقة بين الزهد والتصوف الى ان بعض الناس قالوا الى الزهد لانهم فشلوا في الحياة ومجاراة رغباتهم في متعها او الميل النفسي لصاحبه في كره الدنيا . والترفع عنها ، فيخاف عذاب الله وحسابه يوم القيامة .

ومن هنا فقد كانوا زاهدينفي النوم والاكل والاختلاط بالناس والنساء خاصة ، وفي سائر اللذات البدنية حتى تلك التي احلها سبحانه وتعالى لعباده[١٥]. غير ان هذا الاتجاه ازداد عمقاً في معرفة الله والارتباط الشخصي به ،والحكم على الاشياء في الكوت على وفق ذلك [١٦]فالمتصوفة فلسفوا الزهد وجعلوه مقامات واقساماً .وتبعاً للتطور العلمي والحضاري واعتناق اقوام كثيرة في الاسلام

ممن كانوا قبلة نصاري او يهود ومن الفرس او الهنود ،وانتشار الفلسفة اليونانية ، فقد تلون بعضهم بالزرادشتية الفارسية ، وبالمذاهب الهندية ، وبالنصرانية ،فكانت نزعات مختلفة وطرائق مختلفة على مر العصور ،فادخل ابو زيد سطامي (الفارسي الاصل) على سبيل المثال فكرة الفناء في الله .التي لم تكن عند المسلمين قبلاً ،ولمعروف الكرخي (المسيحي الاصل) اقوال دخيلة على الفكر الاسلامي كقوله :(ان محبة الله شيء لا يكتسب بالتعلم ،وانما هي هبة من الله وفضل) وكقول السري السقطي لتلميذه : (اذا كانت لك حاجة الى الله فاقسم عليه بي) وقول ابي سليمان الداراني : (لو تمثلت المعرفة رجلاً ،لهلك كل من نظر اليها لفرط جمالها وحسنها ولطفها ،ولبدا كل نور ظلاماً الى بهائها)[١٧].

وهكذا اعتمد التصوف على الذوق والكشف ،ولم يخضع للمنطق والعقل شأنه في ذلك شأن الحب كما قيل فيه :

ليس يستحسن في شرع الهوى عاشق يحسن تاليف الحجج

بني الحب على الجور فلو انصف المحبوب فيه لسمج

فالمتصوف جماعة تعتمد الذوق والكشف والالهام ،ولايصح ان تسألهم عن الحجة العقلية فيما يقولون ،بل تسرهم العاطفة فيشطحون ويتكلمون بما لا يفهمون ،حتى كانهم شعور بلا جسم ولا عقل ،وعاطفة بلا تفكير وهياج بلا زرانة، فمن لديه هذا الاستعداد يصلح للتصوف ،وتبدو هذه الصفات متلائمة مع الاركان الثلاثة التي يقوم عليها التصوف وهي

اولاً : وحدة الوجود :

وعرابها الحلاج ثم ابن عربي وعمر السهروردي ،وابن الفارض ،وتتضح فكرة وحدة الوجود في قول الحلاج :(تجلى الحق لنفسه في الازل ،قبل ان يخلق ، وقبل ان يعلم الخلق ،وجرى له في حضرة احد بيته مع نفسه حديث ،لاكلام فيه ،

ولا حروف وشاهد سبوحات ذاته في ذاته ،وفي الازل حيث كان الحق ولا شيء معه نظر الى ذاته فاحبها ،واثنى على نفسه فكان هذا تجلياً لذاته في ذاته ،في صورة المحبة المنزهة عن كل وصف وكل حد ،وكانت هذه المحبة علة الوجود والسبب في الكثرة الوجود ثم شاء الحق سبحانه ان يرى ذلك الحب الذاتي ماثلاً في صورة خارجية ،يشاهدها ويخاطبها ،فنظر في الازل ،واخرج العدم من نفسه لها كل صفاته واسمائه .وهي ادم الذي جعله الله على صورته ابرهر ولا شيء سواه ،ولما خلق الله ادم على هذا النحو ،عظمه ونجده واختاره لنفسه ،وكان من حيث ظهور الحق في صورته فيه وبه هو هو :

سبحان من اظهر ناسوته سرسنا لا هوته الثاقب
ثم بدأ لخلقه ظاهراً في صورة الاكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب

فالله والخلق واحد ،والحاكم والمحكوم شيء واحد :

انا اهوى ومن اهوى انا نحن روحان حللنا بدنا
فاذا ابصرته ابصرتني واذا ابصرتني ابصرتنا

ثانياً: الفناء في الله :

وصاحب هذه الفكرة هو ابو يزيد البسطامي ،ويقصدون به الحال التي تتجرد فيها النفس عن رغباتها وميولها وبواعثها بحيث تتعطل ارادتها وتموت ، فاذا ماتت الارادة الانسانية اصبحت النفس طوع الارادة الالهية ،تحركها كيف تشاء ،وهذا هو حب الله لها ، ولكن المحب والمحبوب شيء واحد ،هو جوهر النفس وباطنها ،وهكذا نجد العابد والمعبود ،والعاشق والمعشوق ،متحدين في شخصيته واحدة يقول ابن الفارض :

كلانا واحد ساجد الى حقيقته بالجمع في كل سجده

وما كان لي صلى سواي ولم تكن صلاتي لغيري في ادى كل ركعه

ثالثاً : حب الله :

وتعد رابعة العدوية هي عرابة هذه الفكرة وحاملة لوائها ،فتكون المحبة سر من اسرار الله ، منحه الهية لا تكتسب بالتعلم ، ولا يجب اذاعتها بين العامة (١٨).

وهكذا كان التصوف بمعنى من المعاني هو الانقطاع الى الله والقبتل في عباده رب العالمين وترك جميع من سواه ،وقد كان نتيجة طبيعية لنزعة الزهد التي ظهرت قوية في العصر الاموي ،والتصوف اتجاه اسلامي في جوهره اثرت فيه المسيحية ،وبدات مراحل تعقيد قواعده ،وشرائط المريدين ابان نهاية القرن الثاني الهجري على يد معروف الكرخي (٢٠٠) هـ ثم جاء ذو النون المصري (٢٤٥) هـ ليطبع المذهب الصوفي بطابعه الخاص كما دخلت اليه افكار متطرفة فارسية او هندية الاصل على يد ابي يزيد البسطامي ،وفي الجزء الاخير من القرن الثالث الهجري اصبح التصوف مذهباً منظماً ،وصار للصوفية اساتذة وتلاميذ وقواعد للسلوك معتمدين ما وسعهم الاعتماد على القران الكريم والسنة المحمدية الشريفة (١٩).

ومما تقدم يمكن تلخيص جوهر التصوف في قيامه على اساسين فقط وهما :

أ- التجربة الباطنة المباشرة للاتصال بين العبد والرب .

ب- امكان الاتحاد وبين الصوفي وبين الله .

في لغة الشعر عند المتصوفة :

ان التصوف علم باطن قاصر على الخواص ،ويرى ذو النون المصري ان جزئياته سراً لا يجوز كشفه كالمحبة مثلاً ،لئلا يسمعه القوم وقال لما سمع قوماً يتذاكرون المحبة في مجلة : (كفوا عن هذه المسالة لا تسمعها الناس فتدعها ،ثم انشأ يقول :

الخوف اولى بالمسيء　　اذا تاله والحزن

والحب يجمل بالتقي　　وبالنقي من الدرن (٢٠).

فقد عد الصوفية انفسهم خاصة اهل الله الذين منحهم الله اسرار العلم الباطن المودع في القران والحديث ،والتصوف ليس في الحقيقة الا العلم الباطن الذي ورثه الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ،وقد استعملوا في التعبير عن هذا العلم لغة الرمز والاشارات التي على فهمها غيرهم من الملمين (٢١).

ومما بلور لغة المتصوفة واكثر من اقتصارها عليهم اتصافهم بصفات المحبين العاشقين الدائمين الخوف من حد وهجران المحبوب يقول الصوفي الكبير ابو المواهب الامام عبد الوهاب الشطراني (٨٩٨هـ -٩٧٣هـ) " ان يكون احدهم مقتولاً تالفاً في محبوبة سائراً الى حضرته على الدوام دائم السهر كامن الغم ، راغباًفي الخروج من كل شيء يشغله عنه من شهوات الدنيا والاخرة ،فهو متبرم من صحبة كل شيء يحجبه عن محبوبه خالق من ترك الحرمة في اقامة خدمته ... وقد وطن نفسه على محبة كل شيء يريده محبوبة ،ليس له معه نفس ،بل كله لمحبوبه يعاتب نفسه في حق محبوب ،ولا يعاتب قط محبوبه غيور على محبوبة من نفسه ، مجهول النعوت كانه سال وليس بسال ، لانعرق من سكرة بين الوصل والهجر ناس حضا نفسه ، ذاكر حض محببه ، لايقول قط المحبوبه لم فعلت كذا

اوقلت كذا ، سرة علانية ، مسرور محزون ، مقامه الخرس ، حاله يترجم عنه لسكره من المحبة يختار مراضي محبوبة على جميع اغراض نفسه [٢٢]. فالكلام بين الصوفي ومحبوبة كلام خاص لا يبقى فيه سوى ان يبث همومه لمحبوب هو اعلم بها ،فلما كان بما له بها فما الحاجة لاعادة القول لاعلام من يعلم بما يعلم اصلاً .الا يكفيه ما يعرف حتى يعرف ؟! وهو شديد المحبة حتى انه لا يجد من الالفاظ ما يعبر بها عن محبته فلكي يرضى المحب حبيبه يثني على صفاته ويذكر طيب اخلاقه ،وهو يتملى في وجهه وقوامه يصف جميل بثينة محبوبة فيقول :

ومازلتم يابثن حتى لو انني من الشوق استبكى الحمام بكى ليا
اذا خدرت رجلي وقيل شفاؤها دعاء حبيب كنت انت دعائياً
ومازادني الناي المفرق بعدكم سلواً ،ولا طول التلاقي تقاليا
ولا زادني الواشون الا حباية ولا كثرة الناهين الا تماديا
الم تعلمي ياعذبة الريق انني اظل اذا لم الق وجهك صاديا
لقد خفت ان القى المنية بغته وفي النفس حاجات اليك كماهيا [٢٣].

اما الصوفي فهو يحب محبوباً ليس كمثله شيء لا شبيه يصف ولا مثيل يمدح يملك اوصافاً عضوية كالكرم ،والرحمة والقوة ولا يملك اوصافاً حسية ليتغزل بها في ايامه ولياليه ،فهو يتكلم بلسان المحبة والعشق والسكر ،لا بلسان العلم والعقل ،ويعلل القشعراني ذلك بقصه الخطاف العاشق الذي بلغ من حبه لخطافه انه قال لها (لقد بلغ من حبي لك ان لو قلت لي :اهدم القبة على سليمان لفعلت ،فحملت الريح كلامه الى سليمان ،فقال له :ما حملك على ما قلت وانت عاجز ؟ فقال مهلاً بني الله ،انا عاشق ،والعشاق انما يتكلمون بلسان عشقهم وسكرهم ،لا بلسان العلم والعقل ،فضحك سليمان من قوله ولم يعاقبه ،وفي هذه القصة عذر عظيم لاهل المحبة في اشعارهم [٢٤].

يقول عمر الفارض :

فطوفان نوح عند نوحي كادمعي　　وايعاد نيران الخليل كلوتمي

ولولا زفيري اغرقتني ادمعي　　ولولا دموعي احرقتني زفرتي

وحزني ما يعقوب بث اقله　　وكل بلا ايوب بعض بليتي [٢٥].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ،لماذا يستخدم المتصوفة لغة الحب في والفاظه الم توفر اللغة لهم مجالاً اخر ،او لم يفتحوا الا انفسهم فتحاً جديداً باستنباط لغة صوفية تستوعب فاذهبوا اليه من شحطات عميقة اعيت من سمعها عن ان يفهم مرادهم منها ،كما عمل العلماء في استنباط لغة علمية ضمت الفاظاً مثل :البكرة ،المنقولة ،المفل ،المطرقة ،الاواني المستطرقة ،المسطرة ...الخ .

من الالفاظ العلمية الكثيرة التي دخلت وستدخل على اللغة العربية وحتى قيام الساعة .

والحق ان الالفاظ التي عمد اليها المتصوفه كانت ضمن اركان التصوف أ-الحب الوجود ، ب-الفناء في الله ، ج-حب الله ،وليست فقط الفاظ الحب والعشق ،وقد استقصى اينس المقدسي هذه الالفاظ في شعرين الفارض فذكر منها امثلة عديدة [٢٦].وعلل الدكتور عبد الحليم حسان استخدام الصوفية للغة خاصة بانهم توقفوا عن حد معين لا يتعدوه ،ذلك هو الذي يحكم بالكفر على من يجتازه من المفكرين ولذلك فقد ركنت هذه اللغة الى الغموض والاخفاء [٢٧].فجاء كلامهم رخواً مفهوماً عصياً على من سواهم .

فاللغة المعبرة عن الاشياء صارت في هذا الشعر هي الاشياء ،صارت بدورها طرفاً في الحوار له من الحيوية والحركة ما للالفاظ الاخرى المشتركة معه فاللغة المنمقة تصير نجوائها الا عن التشويه [٢٨].

تجربة الشاعر الصوفية :

بعد صدور المجموعة الشعرية الثالثة (العصفور والنخب)[٢٩]في نهاية السبعينات ،بدأ محمد راضي جعفر يتجه بشعره بعيداً عن الرومانسية والغنائية باتجاه التامل والاشغال بالكوت واسراره ،وقد بلغ الذروة في ديوانه الاخير (تحولات الروح)[٣٠] الذي تدور حوله هذه الدراسة .

وهنا لابد من الاشارة الى ان الشعر الصوفي المعاصر سيوحي التجربة الفلسفية الصوفية بعيداً عن جوهرها الديني ، لكن محمد راضي جعفر احتفظ بكل خلجات الايمان في قلبه النابض بالحب والهيام ، فهناك تصوف خالص لوجه الرب الكريم – ولاسيما في قصائد مثل (الظمأ) [٣١] ، و(النبي) [٣٢] وقصيدة (ابي الفضل العباس) [٣٣]. وهناك قصائد اخرى يتخذ من الحقائق المماثله كالوطن والارض والقضية معشوقاً يتعبد في محرابه ويتوحد فيه منقطعاً عن الدنيا وما فيها مثل قصيدة (تحولات الروح) [٣٤] التي استوحى منها عنوان الديوان وقصيدة (دعوة) [٣٥]، وقصيدة (في حضرته) [٣٦] وقصيدة (في ففردوسه) [٣٧] وسوف ننتخب لاحقاً بعض هذه القصائد ونحللها بدقة وتفصيل . ومما لاشك فيه ان شاعرنا يمتلك ثقافة واسعة ، ولاسيما في مضمار الاغتراب والتصوف ، وفرتها له دراساته الاكاديميه ، وشعره يجعل بمجمع صوفي ضخم جداً فقد تحدث عن (التوحد) [٣٨] (الوجد) [٣٩] و(الغربه) [٤٠] و(الفقر) [٤١] و(الاستئناس بالليل) [٤٢] و(الاستغناء عن الناس) [٤٣] وغير ذلك وقد مر بنا سلبقاً الافكار الثلاثة التى يشتكل منها عماد الفكر الصوفي القديم هذه الافكار مائلة في شعره بوضوح فيقول في قصيدة (المربد) [٤٤] ((نبدأ الان ما انتهى

ثم ننهي الذي ابتدا

فاذا مارتويت من

كاسك العذب مزبدا

وتوحدت بي فقل

انا من بي توحدا)) [٤٥]

وهذا يذكر بقول الحلاج الذي مر ذكره ، ويذهب ابعد من ذلك فيصرح في قصيدة اخرى ، بانه يشهق بين الفنية والفنية خلف نقاب جهينه ((مالم يسترحه الحلاج من التثليث)) وعن فكرة الاتحاد بالمحبوب يقول[٤٦] ايضاً :

((ان يكن جمعهم شتى فقد

جمعوا في واحد لايفرق))

اما الفكرة الثانية (الفناء في الله) فقد استلهمها في قوله :

((من صمت الاعشاش الى زوبعة الاحراش))

اجمع هذا الفيض الرباني

المتوهج مثل البلور)) [٤٧]

ولم يكتف بذلك ، فيشبه نفسه بابي يزيد البسطامي حامل لواء هذه الفكرة[٤٨] ويتابع رابعة العدوية وغيرها من كبار المتصوفه في الفكرة الثالثة فكرة الوجد والحب والمعرفة بالاسرار[٤٩] فيقول :

((في شرفات الماء ينبت وجه صبيه تعرف عن احوال الوجد مالايعرفه الصوفيه)) ولا نريد الافاضة في الحديث عن المعجم الصوفي لهذا الشاعر ،ولكننا نقول ان ديوان تحولات الروح تحدثعن الاتحاد ومرادفاتها (١٤) مرة وعن الظمأ ومرادفاتها (٣٤) مرة ،والوجد(١٠)مرات ،والخمر(١٥) مرة ،والفقر (١٠) مرات، والكاس (٢٢) مرة والسراج (٢١)مرة والغربة (١٥) مرة وغيرها كثير وقد تابع احد الباحثين المعجم الشعري لشاعرنا ،ولامجال لتكرار ماذهب اليه في هذه

الدراسة[٥٠] .

وخلاصة القول ان محمد راضى جعفر تصوف باتجاهين احدهما ديني والاخر وطني ؛وحاول تحقيق شعرية خاصة به (Poetic) من خلال استخدام التناص والمغايرة بشكل منفرد او مجتمع ، ومعنى هذا ان هذا الشاعر كان واعياً جداً لمشروعه ، وحريصاً على توفير جميع وسائل النجاح له بعيداًعن التكلف والاصطناع ،فحشد له من ثقافته الواسعة وتجربته الصادقة وموهبته الفذة الشئ الكثير

شعرية التصوف :

الشعرية[٥١] بمعناها العام ترتبط بقوانين صناعة الابداع الشعري والادبي وكما يراها رومان ياكوبسن في كتابة (فضايا الشعرية) [٥٢] كل ما يجعل من عمل ما عملا ً أدبياً). وقد استعملت في المعجم النقدي المعاصر بمعاني مختلفة تقترب فيما بينها او تتباعد تبعاً للناقد والعصر والمدرسة التي ينتمي اليها، وما يهمن هنا كيف تحققت الشعرية Poetic في النصوص الصوفية للشاعر محمد راضي جعفر ،وما هي الوسائل التي اعتمدها الشاعر للتوصل الى هذه الغاية ؟

ان التناص والمغايرة وربما كلاهما معاً اهم الوسائل التي اعتمدها شاعرها في تحقيق الحالة من الادهاش والمتعة تشذ القراء من جهة وتقدم لهم المعلومة والفكرة بعيداً عن التكلف والاصطناع من جهة اخرى .

أ- التناص[٥٣] :

ارتبط هذا المفهوم بميخائيل باختين ،وبعد ذلك تبنته جوليا كرستيفا وعمقه ،ثم انتشر على يد بارت وريفاتير وفوكو ،واصحاب نظريات التلقي والقراءة جميعهم ،ومعنى التناص بابسط صورة ،او تداخل النصوص هو انتقال المعاني والافكار من زمن لاخر ومن بيئة لاخرى ،وقد شبه بلوحة الفسيفاء ،وقيل

سابقاً ان " الليث ليس سوى مجموعة من الخراف المهضومة " ولا يوجد في العالم نصوص خالصة سوى كلمات ادم عليه السلام .

ولقد اعتمده محمد راضي جعفر منفرداً فقال في قصيدة (الموت في الحياة) [٥٤]. مستثمراً قول ابي صخر الهذلي[٥٥].

واني لتعروني لذكراك عشه كما انتفض العصفور بلله القطر

" ومثلما ينتفض العصفور

من بلل الماء

انتفضت من حنايا

كفني مقرور "

ب-المغايرة[٥٦] :

تقع فكرة في صميم منهجية التفكيك[٥٧] التي تزعمها النافذ جاك دريدا، لانها اساس فكرة الاختلاف ،وربما كان استخدام المغايرة في السياسة والاقتصاد لا ينطوي على مخاطر كبيرة ،ولا يثير تحفظات هامة ،على النقيض من استخدامه في الابداع الادبي .

ولقد استعمل الشاعر المغايرة والتناص بشكل متالف في معظم قصائده الصوفية ،ولابد من الاشارة هنا ان البرهنة على هذا الكلام لا تقتضي منا استعراض جميع القصائد ،وانما سوف نكتفي ببعضها اتماماً للفائدة ،واولى هذه القصائد هي قصيدة (تحولات الروح) لانها من المطولات التي ندر وجودها في هذه المجموعة ،ولان خصوصيتها لدى الشاعر جعلته يختارها عنواناً للمجموعة الاخيرة .

" غابت عن العين الجنائن بغتة

لكن وجهك ماثل بجواري

هاانني اتلو عليك قصائدي

وافض دون تردد اسراري "(٥٨).

والشاعر هنا يتحدث مع وطنه العظيم صاحب الحضارة العريقة وصاحب الجنائن المعلقة بنياط القلب .فيقول :

" لو كانت الجنائن المعلقات

بنياط القلب

طلول

ما اجشت عيناي بالبكاء "(٥٩).

ومعنى هذا ان الشاعر لا يرى في الوطن ما يراه غيره من الشعراء ،ملاعب للصبا ومثار للذكريات ،وانما يتغاير معهم ويختلف لان الوطن لديه هو العشق الوحيد الذي يطفأ المرايا ويشعل الحنايا كي يزمع القلب على المثول .

ويقول ايضاً :

" افهكذا الخمسون تنفث خمرها

فكانما وحدى انا العشاق

البحر دجلة والعواصم كلها

بغداد والكوت الفسيح عراق "(٦٠).

نعم الكون الفسيح عراق ،ان الشاعر في الخمسين وهو ذلك الصب العاشق ،وقد اسكرته حرارة الاعوام ،فاصبح البحر لديه دجلة وجميع عواصم

الدنيا بغداد ،وهنا يلجأ الشاعر ايضاً الى طريقته المعهودة -كما فعل في السابق - فيحقق الشعرية (Poetic) من خلال استخدام المغايرة والتناص ،فهو مثلهم يتحدث عن الخمسين لكنه يختلف معهم في تاثيرات الخمسين عليه .فهي البداية في حين هي عنده نهاية المطاف يقول نزار قباني[٦١].

" انها الخمسون ماذا بعدها

غير امطار الشتاء المحزن

انها الخمسون ماذا ظل لي

غير هذا التبغ استهلكه

غير هذا العفن سيستهلكني"

وفي القيصدة ذاتها (تحولات الروح) يدخل الشاعر في مغايرة وتناص مع الصمة بن عبد الله القشيري الذي يجزم في قصيدته التي مطلعها حننت الى ريا ونفسك باعدت " بقوله :

" فليست عشيات الحمى برواجع "

فيقول محمد راضي جعفر :

" تبصر فان رحلة العذاب

لن تطول رحلة العذاب

وسوف تعرفان حين تهدل الاطيار

ان عشيات الحمى

رواجع ابكار "[٦٢]

ونقهى في قصيدة (تحولات الروح) لناخذ مثالاً اخر قوله :

" وتنافس الشعراء في غلس السنا

من نشوة وكانهم غرمان

حتى اذا سكروا صحوا فاذا صحوا

نطقوا بما يعرف الحكماء "[٦٣].

فيدخل في تناص ومغايرة مع سلفة الجاهلي المنتحل الشكري[٦٤]، الذي افقدته الحمزة صوابه فقال :

فاذا سكرت فانني　　رب الخورنق والسدير

واذا سكرت فانني　　رب الشويهة والبعير

وعلى ذكر الحمزة يدخل الشاعر في مغايرة وتناص مع ابي نواس فيقول في قصيدة (المريد)[٦٥].

" داوني بالتي مشت

في عروقي تمردا

واخضني اذا انتشت

صلواتي تهجدا "

ومن منا لا يتذكر حين يقرا ذلك قصيدة النواسي التي يقول فيها[٦٦].

دع عنك فان اللوم اغراء　　وداوني بالتي كانت هي الداء

قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم " مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة كانها كوكب درري "[٦٧] وخاطب هرون الرشيد غمية مرت فوق راسه بقوله :" اهطلي حيث شئت سوف ياتيني خراجك " وتحدث ابي تمام متعجباً من احدى تشبيهاته التي ردت عليه :

لا تنكروا ضربي من دونه　　مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الامل لنوره　　مثلاً من المشكاة والنبراس

مع كل هذا يدخل محمد راضي جعفر في تناص ومغايرة ،ويخاطب حبيبه وحبيب الشعب الفارس صدام حسين حفظه الله ورعاه في قطعة تتجلى فيها الشعرية بابهى صورها فيقول(٦٨):

" لم اعرف المشكاة مذواصلتني

اذ انت مشكاتي وانت سراجي

أأنا الفقير ؟ وقد وهبت خصاصتي

نجم السرى ومجرة الادلاج

بك ربع هذى الارض بعض خزائني

وخراجها رغم الولاة ..خراجي ".

وختاماً اقول ان التصوف في شعر محمد راضي جعفر تجربه شعورية صادقة ترسخت في ذهنه من خلال المواظبة على القراءة والتامل ،وهي بحاجة الى المزيد من الدراسة والتحليل .

الهوامش :

١- ينظر شعرية النص المفتوح ،دراسة في احزان بن زريق ،د. مؤيد عباس العيثاوي ،مجلة الطليعة الادبية .

٢- ينظر شعر محمد راضي جعفر -دراسة تحليلة فنية ،لؤي شهاب محمود العاني،رسالة ماجستير كلية التربية جامعة بغداد ،مطبوعة على الالة الكاتبة.

٣- ينظر على سبيل المثال حديثه مع الصحفي عبد السلام لطليعة ،جريدة العمل، تونس ١٠/٥/١٩٨٢ ،وحديثه مع اللواء الركن نوري السيد نفاوة ،في شعر محمد راضي جعفر ،مصدر سابق :٣ .

٤- ينظر شعر محمد راضي جعفر . صدر سابق :الفصل الاول .

٥- المصدر نفسه :شعر محمد راضي جعفر :٢.

٦- الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر -مرحلة الرواد ،محمد راضي جعفر ، كلية التربية ابن رشد ،بغداد ١٩٩٣ رسالة ماجستير مطبوعة على الالة الكاتبة .

٧- الرؤى الصوفية في الشعر العربي المعاصر -محمد راضي جعفر ،كلية التربية ابن رشد ،رسالة دكتوراه مطبوعة على الالة الكاتبة ،بغداد ١٩٩٩.

٨- ينظر شعر محمد راضي جعفر ،مصدر سابق :٦.

٩- ينظر دليل الجمهورية العراقية ،مصطفى جواد ،محمود فهمي درويش ، واحمد سوسة ،وزارة الارشاد :٥٥٦.

١٠- التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى اخر القرن الثالث الهجري ، عبد الحكيم حسان ،المكتبة الانجلو مصرية ١٩٥٤: ٢٢.

١١- الانوار القدسية في معنى القواعد الصوفية الامام العلامة عبد الوهاب الشعراني مكتبة دار احياء التراث العربي ،مطبعة منير بغداد د .ت: ١٩٥/١

١٢- التصوفي في الشعر العربي ...در سابق :٢٣.

١٣- صفة الصفوة العالم عبد الرحمن بن الجوزي ،مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية الهند ،ط٢، ١٩٧٠: ٤/١.

١٤- مقدمة ابن خلدون ،عبد الرحمن بن خلدون ،دار الكتاب اللبناني ،بيروت ١٩٦٠: ٢/ ٢٨٦٣ التصوف الاسلامي ٤٧/١٠.

١٥- ظهر الاسلام :٥٨/٢.

١٦- تاريخ بروكلمان : ٥٤/٤

١٧- ظهر الاسلام :٥٨/٢

١٨- المصدر نفسه :٦٠/٢-٧٩

١٩- في التصوف الاسلامي و تاريخه . نيكولسون _ ترجمة ابو العلا عفيفي ، لجنة الترجمة و التأليف و النشر ١٩٥٦ : ٢٦_٢٧ .

٢٠-الرسالة القشيرية ، الأمام ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبدالكريم بن طلحة القشيري النيسابوري الشافعي ، تحقيق عبدالحليم محمود ومحمود شريف ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، د.ت : ١٤٧ .

٢١- في التصوف الاسلامي وتاريخه ،مصدر سابق :٧٦-٧٧.

٢٢- الانوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ،مصدر سابق :١٧٠/٢.

٢٣- الاغاني ،الابي الفرج الاصبهاني ،علي بن الحسين ،طبعة مصورة بالاوفسيت عن طبعة دار الكتب المصرية ،وزارة الثقافة والارشاد القومي ،المؤسسة المصرية العامة للتاليف والنشر ،القاهرة ،د. ت: ١٢٦/٨.

٢٤- الانوار القدسية ،مصدر سابق :١٧١.

٢٥- ديوان ابن الفارض :٧٤.

٢٦- امراء الشعر العربي في العصر العباسي ،انيس المقدسي ،دار العلم بيروت ١٩٦٣: ٤٤٩.